تطور الوعي السياسي في عصر الخلفاء الراشدين ٣-١
تأسيس نظام الخلافة والحفاظ على وحدة الدولة

د. حمدي شاهين
www.hamdi-shahin.com

أ) تأسيس نظام الخلافة وإقرار حق الأمة في اختيار قادتها:

مثَّلت وفاة رسول الله ﷺ صدمة كبيرة للمسلمين، جعلت عمر بن الخطاب ﷺ يقف مشدوهًا مهددًا من يقول أن رسول الله ﷺ قد مات، حالفًا أنه ﷺ ما زال حيًا؛ وأنه سيعود فيقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات[١].. لكن المسلمين – رغم عظم مصيبتهم في وفاة رسول الله ﷺ – لم يشغلهم ذلك عن النظر الحازم في مستقبلهم، وقد "كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة"[٢]، مدركين خطورة الظروف المحيطة بهم في داخل دولة الإسلام وخارجها، من بدء بوادر الردة، وتهديدات الفرس والروم، فاجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة للتباحث في الأمر..

ولم يكن النبي ﷺ قد عيَّن خليفته، ولا نصَّ على من يكون، لا أبا بكر ولا غيره، على الراجح من كلام العلماء من أهل السنة، وإن كان قد أمر أبا بكر أن يصلي بالناس في مرض وفاته[٣]، مما فهموا منه إشارته وتلميحه إلى استخلافه، لا أمره بذلك، بل ترك الأمة تختار خليفتها، وتتولى أمر مستقبلها، قال النووي: "بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة له، وتقديمه لفضيلته، ولو كان هناك نص عليه أو على غيره لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولاً، ولذكر حافظ النص ما معه، ولرجعوا إليه"[٤]. وقال ابن تيمية: "والتحقيق أن النبي ﷺ دل المسلمين على استخلاف أبي بكر، وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك، حامد له، وعزم على أن يكتب بذلك عهدًا، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه، فترك الكتاب اكتفاء بذلك"[٥]، ونفي ابن كثير كذلك وجود نص على استخلاف أبي بكر، ولكن النبي ﷺ "أشار إشارة قوية يفهمها كل ذي لب وعقل إلى الصديق"[٦]

فكان اختيار أبي بكر الصديق ﷺ أول الخلفاء الراشدين في سقيفة بني ساعدة في اليوم الذي قُبض فيه رسول الله ﷺ بعد مناقشات مستفيضة، حيث تداعى الأنصار سريعًا ليبحثوا أمر خلافة النبي ﷺ، وقد أزمعوا على اختيار سعد بن عبادة سيد الخزرج خليفة للمسلمين، بالرغم من أن رسول الله ﷺ لم يكن قد دُفن بعد، ووصل خبر اجتماع الأنصار إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فبادر إلى أبي بكر ﷺ فأعلمه بما كان، ورغم انشغال الرجلين بما نزل بهما من أمر رسول الله ﷺ إلا أنهما بادرا – ومعهما أبو عبيدة بن الجراح – إلى لقاء الأنصار في سقيفة بني ساعدة[٧].. حيث دارت مناقشات تراوحت بين

الهدوء والحدة، في ممارسة شورية كاملة، انتهت باختيار أبي بكر خليفة، والتأصيل لمبدأ أن الأئمة من قريش، كما سيأتي بيانه مفصلاً.

وبالرغم من حداثة التجربة السياسية للأمة، وحرج الظرف الذي تم فيه الاجتماع، إلا أن اجتماع السقيفة قد برهن على درجة عالية من الوعي السياسي، والقدرة على الخروج من اللحظة الفارقة في حياة الأمة، وقد احتفظت بوحدتها وبصيرتها، وخطت مسارها نحو مستقبلها، وأسست له.

ولا شك أن اجتماع السقيفة قد شابه نوع من التعجل القلق من جانب الأنصار، وقد وضع قيادات المهاجرين بين خيار النظر السريع لمستقبل الأمة، أو الاستسلام لحالة الحزن والدهشة لوفاة النبي ﷺ، وواجب تجهيزه ودفنه، فاختارت مقتضى العقل الصارم بالنظر إلى المستقبل، تلافيًا لأي احتمال للشقاق فيما لو اختار الأنصار خليفة دون مشاركتهم، وتجاوزًا لرأيهم.

فكانت شورى السقيفة تأصيلاً لحق الأمة في اختيار قيادتها، وتسيير أمورها وفق قواعد الإسلام، وأن الشريعة الغراء لم تسلب منهم ذلك الحق، بل دعتهم إلى ممارسته في الوحي القرآني والسنة النبوية حيث فريضة الشورى.

ب) الحفاظ على وحدة الدولة الإسلامية:

لا شك أن المحافظة على وحدة الدولة الإسلامية مطلب شرعي، إذ إنها تعبير عن وحدة للمسلمين، قال تعالى (**واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا**)[٨]، وقال ﷺ: " عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ.."[٩]، وقال ﷺ: "مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ"[١٠].

وكان أول تحدٍ يواجه أبا بكر هو حركة الردة التي عزم أمره على قمعها بكل قوة، وجادل من فرق بين حرب مدعي النبوة ومانعي الزكاة، ومنهم عمر رضي الله عنه، حتى اجتمعت الكلمة على وجوب حرب الجميع دون تفرقة بينهم[١١]

وأدرك أبو بكر رضي الله عنه ببعد نظره الدوافع السياسية لحركة الردة، وأنها تعني تفكيك الدولة، والخروج على نظامها العام، والتمرد على خليفتها، فقد ظلت الروح القبلية تحرك هذه التجمعات التي لم تأنس إلى الوحدة السياسية العامة للدولة الإسلامية، ولم ترتح إلى سلطانها، فظل إحساسها به خافتًا، فوجدت بعض تلك القبائل في وفاة النبي ﷺ فرصتها لتتحلل من أبرز مظاهر التبعية السياسية للمدينة وهي جباية الزكاة.. بينما نظر آخرون إلى أن وجود نبيٍّ من قريش قد بوّأها مكانة عليّة بين قبائل العرب، فباتت

تطلب من الجميع طاعتها حتى بعد وفاة النبي ﷺ، فسرت دعوى التنبؤ بين زعمائهم لتتبوأ قبائلهم الصدارة كما تبوأتها قريش، ورأوا أن المسألة كلها "مسألة كهانة وأسجاع، وقيادة وأتباع" [١٢].

ولما عزل عمر ﷺ خالد بن الوليد ﷺ خطب خالد جماعة الناس متأسفًا إذ ولي الشام وقت الخطر والحرب، فلما استقر الفتح عزله الخليفة، فقال رجل: هذه والله الفتنة: فقال خالد: "أما وابن الخطاب حي فلا.."[١٣]، وهي رواية شديدة الدلالة على حرص القوم – قادة وجندًا – على وحدة الدولة وطاعة الخليفة حتى في حالات الغضب التي قد تطيش فيه الأحلام، وتضل العقول.

وثمة روايات شيعية تزعم أن معاوية بن أبي سفيان ﷺ كتب إلى علي ﷺ بعد معركة صفين يجدد طلبًا سبق منه إليه بأن تكون له الشام، يظل أميرًا عليها، على أن لا تلزمه طاعة علي ﷺ [١٤]، ومعلوم ما كان من تضحيات جسيمة قدمها الطرفان المتقاتلان في صفين، مما سبب الشفقة من تواصل الحرب بينهما على ذلك النحو، فقد يكون معاوية ﷺ فكر في ذلك المقترح للخروج من ذلك المأزق الذي لزم الطرفين، ورآه سبيلاً لا بديل عنه لحقن دماء المسلمين، لكن عليًا ﷺ رفض طلبه، ولم يكن العقل السياسي الإسلامي مهيأً آنذاك لقبول استقلال جزء من الدولة عن بقيتها، ولا تعدد مراكز الخلافة، وهو الأمر الذي فرضه تطور الأحداث في الأعصر التالية، فوجدنا خلافة عباسية بغدادية، تجاور خلافة عبيدية فاطمية بمصر، وأخرى أموية بالأندلس.

---

[١] ابن هشام: السابق ٦٥٥/٢

[٢] الطبري: المصدر السابق ٢٠٧/٣

[٣] حديث: "مروا أبا بكر فليصلّ بالناس" (البخاري ١٣٣/١، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٧)

[٤] النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥٤/١٥

[٥] منهاج السنة ٥١٦/١، وراجع ٥٢٤/١، ٥٢٥

[٦] البداية والنهاية ٩٤/٨

[٧] ابن حجر: فتح الباري ١٥٠/١٢-١٥١

[٨] سورة آل عمران، آية ١٠٣،

[٩] ابن حنبل: المسند ٢٢٠/٣٨، الترمذي: السنن ٣٥/٤-٣٦، وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه

[١٠] مسلم: الصحيح ١٤٧٦/٣

[١١] البخاري: الصحيح ١٠٥/٢

[١٢] عباس محمود العقاد: عبقرية خالد ص٦٢.

[١٣] ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٣١٢/٤٠-٣١٣

[١٤] مروج الذهب ومعادن الجوهر ١٩/٣، علي بن أبي طالب: نهج البلاغة ص ٥٥٢